الفصل السابع:

العصر الحديدي والبحث عن إسرائيل القديمة؟

أحمد الدبش

يتفق معظم علماء الآثار التوراتيين، ويساندهم في ذلك السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، على أن نشوء إسرائيل القديمة في بلادنا فلسطين تم نحو ١٢٠٠ ق. م، وهي الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي. وتلك هي الفترة التي يطلق عليها عادة فترة " النشوء "، أو " أصول " إسرائيل. وهي الفترة التي يفترض أن تكون إسرائيل (المزعومة) تلك قد سيطرت فيها على فلسطين. لكنهم يختلفون اختلافاً حاداً حول الكيفية التي تمت لها السيطرة على تلك البلاد.. فالجدل المتعلق بجذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموماً كأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات. قام عالم الآثار الألماني " فرتز فُلكمار " بتلخيصها على النحو التالي:

- " وليم أُلبرايت "، و " ج. إرنست رَايت "، و " جُون برايت "، و " مول لب ": يتمسكون بنظرية الغزو (أي رواية العهد القديم). لكن هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار التحليلات النقدية لأسفار التوراة منذ عصر التنوير. ومن الجدير بالذكر أن " تومس طمسن "، وزملاء آخرين له، يتفقون على رفض فرضية الغزو ويضيفون القول " إن معاينات فنكلشتاين (الآثارية) توضح بشكل كامل أن نظرية الغزو ميتة وللأسباب

التالية: العديد من المواقع لم تكن مأهولة في فترة نهاية العصر البرونزي المتأخر، العديد من المواقع هجرت في نهاية تلك الفترة الزمنية لكنها لم تتعرض للتدمير. العديد من المواقع العائدة للعصر البرونزي استمرت قائمة في العصر الحديدي الأول، وتلك المواقع العائدة للعصر البرونزي المتأخر التي لم تظهر فيها آثار تدمير، كانت مهجورة لفترة طويلة بعد الدمار الذي لحق بها، سكنها الناس مجدداً.

- " ألبرشت "، و " ألت "، و " مارتن نوث "، و " مانفرد فايبرت ": يرون أن ذلك كان نتيجة عملية تسلل إلى فلسطين، لكن هذه النظرية لا تشرح كيفية سقوط المدن الكنعانية.

- " جورج مندنهول "، و " نورمان غوتفالد "، و " كورنليس دي غويس ": يرون أن ذلك تم عبر إعادة تنظيم اجتماعي، أي غزو وتسلل وتمرد. لكن هذه النظرية غير قادرة على تقديم شروح كافية، لسبب حدوث مثل هذه التطورات.

وفي الوقت نفسه أخفقت كل هذه النظريات في أن تأخذ بعين الاعتبار المكتشفات الآثارية الأخيرة. هنا نرى أن العالم يتقدم بنظرية رابعة أطلق عليها اسم [افتراضية التعيش المتكافل]، والتي تشبه إلى حد كبير نظرية التسلل [1].

ويعلق العلاَّمة " كيث وايتلام " من جانبه على الفرضيات الثلاث السائدة بالقول: " لقد برهنت أنَّ تغيرُّ منظور قراءة الكتاب العبري، الذي أثار عدة تساؤلات حول الفرضيات التاريخية النقدية السائدة واستخدام

الموروث الكتابي من أجل إعادة البناء التاريخي، بالإضافة إلى تراكم المعطيات الآثارية من حفريات موقع واحد، وعمليات المسح الإقليمية لفلسطين، قد بينت كلها أن هذه الأنماط والنظريات المتنوعة ليست. أكثر من اختلاقات لماض متخيل. والعجز المتزايد للتركيبات الأساسية الثلاثة للأصول الإسرائيلية عن التعامل مع الكم المتزايد من الأدلة، بالإضافة إلى التقليل من مغزى ما تعتبره نصاً يلقي المزيد من الضوء على المدى الذي تم فيه اختراع إسرائيل " [٢].

وهكذا، وبعد هذا الفشل الذريع في العثور على أقل دليل يثبت هذه النظريات، كان محتماً على بعض الباحثين والأثاريين التوراتيين محاولة خلق وجود إسرائيلي في فلسطين بأنه طريقة، فبدأ بعض الآثاريين بالبحث عن أصول إسرائيل القديمة في فلسطين نفسها لا خارجها.

فيذكر العالم الأثري " فنكلشتاين " أن الإسرائيليين لم يأتوا إلى فلسطين في صورة محتلين من الخارج، وإنما انبثقوا ونبتوا من داخل هذه البلاد، فهم السكان الاصليون وليسوا وافدين ولا مهاجرين، فيزعم أن علم آثار السنوات الأخيرة يكشف سلسلة أحداث مغايرة لقضية الاستيطان - الهجرة من الخارج - والنظريات العلمية التي سيطرت منذ نهاية القرن الماضي انهارت واحدة تلو الأخرى، والصورة التي تظهر اليوم من المكتشفات الأثرية! تفيد بأن الكيان الإسرائيلي ظهر من خلال سكان محليين وليس نتيجة لحدث واحد (الهجرة) وما كان مرحلة في سلسلة أحداث دورية متكررة طويلة المدى في تاريخ البلاد، ولم يتغذ [الوجود الإسرائيلي] من السكان الذين جاؤوا من خارج البلاد؟! [٣].

وهذا ما حدا بـ " ليمخي " أن يعلن أن التمييز الشائع بين ثقافة الكنعانيين والإسرائيليين لا مبرر له في سجل الأركيولوجيا حتى الآن، وهذا قاده إلى استنتاج تاريخي يشاركه فيه عدد من الدارسين وهو أن إسرائيل كانت محلية في فلسطين [٤].

ويمكن تلمس ذلك في كتاب " ملر وهيز " حول التاريخ الإسرائيلي واليهودي، بإشارتهم إلى إسرائيل على أنها محلية أصلية في فلسطين القديمة. وقد طرح كل من " آهلشتروم " (١٩٩٣) و "طمسن " و " وايتلام " (١٩٩١ و١٩٩٤) أيضاً بوضوح وصراحة أشد ضرورة دراسة تاريخ فلسطين القديمة[٥].

وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه، رواجاً داخل أروقة الجامعات ومراكز الأبحاث العربية، فها هو ذا المفكر العربي " فراس سواح " يأتي بنظرية مثيرة للاستغراب، وهي [نظرية التطور الديني المحلي]، والتي تتفق إلى حد بعيد مع نظرية " جورج مندنهول "، " ونورمان غوتفالد "، من حيث تركزها على التمايز الديني لسكان المناطق الهضبية عن الوسط الكنعاني، ولكنها تختلف معها بإسقاطها لعنصر الانتفاضة الداخلية. ولعل المقطع التالي، يعبر عن جوهر هذه النظرية: " لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية(!!!)، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة يمكن وصفها بالثقافة الإسرائيلية. ذلك أن كل ما كشف عنه علم الآثار يدل على ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي. ثم جاءت دراستنا للتراث

اللغوي والأدبي والديني لما يدعي بالثقافة إسرائيلية، لتدعم نتائجنا المبدئية. فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون كانت كنعانية، والخط لذي كتبوا به كان كنعانياً، وآدابهم تجد جذورها في الأدب الكنعاني على ما تدل عليه المقارنة مع الأدب الأوغاريتي، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجة لجدليات المؤسسة الدينية الكنعانية. ولا ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج ما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط، مع بقاء الاحتمال قائماً في أنها ربما استقبلت فئة قليلة من النازحين من مصر. وعندما بدأ كهنة يهوذا في المنفى بتحرير أسفار التوراة، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، سعياً وراء ترسيخ الصيغة الأخيرة للدين اليهودي الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء. لقد ميز كهنة يهوه أنفسهم وبقية سبي يهوذا عن كنعان تمييزاً مطلقاً، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين، فارقاً في كل شيء " [٦].

الكثير من علماء الآثار التوراتيين، ومن يساندهم من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي يميلون إلى القول بأن مولد إسرائيل يرجع إلى موجة جديدة من الاستيطان في المرتفعات الوسطى في بلادنا فلسطين. إذ اكتشف الآثاريون بقايا عدد من القرى غير الحصينة يبلغ نحو مائة قرية من الأرض الجبلية شمالي أورشليم (القدس)، وقالوا إنها ترجع إلى عام ١٢٠٠ ق. م تقريباً. وكانت تلك الأراضي القاحلة غير صالحة للزراعة حتى ذلك الوقت، ولكن بعض الأساليب التكنولوجية

اكتشفت قبل ذلك التاريخ بقليل مما مكن الناس من الاستيطان فيها، وقد تمكن المستوطنون الجدد من العيش فيها عيش الكفاف بتربية الأغنام والماعز والأبقار، ولا توجد أدلة على أن المستوطنين كانوا أجانب، فالآثار الحضارية التي وجدت في هذه القرى لا تختلف عن آثار السهل الساحلي. وقد انتهى علماء الآثار من ذلك إلى أنه غير من المؤكد أن المستوطنين كانوا من أبناء فلسطين الأصليين [٧].

يفهم " أهلشتروم " أن الدافع وراء التزايد في التوطن في المرتفعات قليلة السكان في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، كان مدفوعاً بالرغبة في الهرب من الحروب والاضطرابات في تلك الفترة. ويلجأ إلى رسائل تل العمارنة ليبين أن من الممكن استقراء أن القلاقل الاجتماعية والمخاوف كانا من القوى الأولية التي دفعت حركة الجماعات السكانية من الاتجاهات كافة. إلا أن الأدلة عن القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. كانت كنعانية، مثلما كانت الثقافة المادية في النقب لفترة ١٢٠٠ ق. م، وهذا واضح من أنماط البيوت والفخاريات، وتلخيصه للفترة على أنها تقدم استمرارية ثقافية ودينية ومادية تعود إلى مرحلة أواخر العصر البرونزي حتى العصر الحديدي الأول يتردد صداه في كتب " لمكه " و " كوت ووايتلام " (١٩٨٧) و " كوت " (١٩٩١) و " طمسن " (١٩٩٢م)[٨].

وبالرغم من عدم توافر أدلة على وجود إسرائيلي في بلادنا فلسطين، بدأ بعض المعنيين من الإسرائيليين والتوراتيين، وساندهم في ذلك السادة حراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، في البحث في النقوش القديمة

التي تعود لممالك الشرق القديم، والتي تشير إلى مجموعات من الناس عُرفت بأسماء مختلفة مثل [سء. جءز]، [خفيرو]، [خبيرو]، [عفرم]، [عفر. و]، [عابيرو] في النصوص المسمارية في (نوزي، وتل حريري - ماري -، وتل العطشانة - الالاخ -، ورأس شمرا - أوغاريت -، تل العمارنة وغيرها...) واعتقدوا أنهم اكتشفوا فيهم [العبريين].

فيذهب الباحث التوراتي " إدوارد كامبل " إلى أنَّ كلمة [عابيرو] تطابق كلمة [العبريين] فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجة إي أن [العابيرو] هم [العبريون] (٩).

فـ [العابيرو] لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعباً تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع الكنعاني، وطرد من المدن - الدول لأسباب اقتصادية وسياسية، وقد أصبحوا - أحياناً - لصوصاً وقطاع طرق، وأحياناً أخرى جنوداً مرتزقة (١٠).

فمراجعة " م. ليفيراتي " الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة أكدت أن [العابيرو] طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية، ليعيشوا لصوصاً وقطاع طرق ضد رواد التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيراً في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة(١١).

ومن الجدير بالذكر أن استعمال اسم [العابيرو]، في رسائل تل العمارنة، مع صيغة الفعل الأكدي الذي يعني (يعمل / To - Do) أو (يستعمل) وفي الجملة يمكن أن يعني شيئاً يشبه الفعل [عبروا] أو ببساطة

ليصبحوا [عابيرو] إلى أن يصبح المعنى " هرع وأخذ جانب العابيرو "، وبدلاً من مصطلح [العابيرو] السطحي الذي يعني خروجاً عن القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالاً أن يكونوا ثواراً، ذلك أنه ليصبح عابيرو فليقاوم سلطة لملك، وهذا ما يفسر محاولة تقليل أهمية العابيرو في رسائل العمارنة بينما نشاط العابيرو كبير جداً. فالمدن ثارت وأصبحت [عابيرو] وقد أعطى " رب - عدي " أحد ملوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعاً، داعياً كل الذين يثورون في وجه مصر بـ [العابيرو] ووضعهم ضمن هذا الإطار. فـ [العابيرو] ليسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج - كما يرى البعض - بل هم من نبات الأرض والصحراء. إن ظاهرة [العابيرو] تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام. ونتيجة الاضطهاد والقهر الواقع على عاتق الناس من جهة، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية قامت حالات تمرد كبيرة، هذه الحالات رسمها الحكام الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل تل العمارنة.

ينتقد " لوريتز " (Loretz) بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين الـ [عابيرو] والـ [عبرانيين]، ويبين الخطأ الفادح الذي تنطوي عليه هذه المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط. نقده مدمر بسيط ومستقيم: لا توجد بينات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر والـ [عابيرو] المذكورين فيها، مع أصول إسرائيل. ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذرياً، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوي مرتبطاً بأي شكل كان

بتاريخ أصول إسرائيل[١٢].

وإذا كان مؤرخونا الأفاضل أصحاب الفكر الآسن، لم يشككوا لحظة في ما تلقنوه، بل رددوه كببغاء في صالون المتحف، فإن أحد المفكرين الغربيين " بير روسي " لم يسعه السكوت على الكذب التاريخي، فيخصص الفصل الأول من كتابه الرائع « مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب » لدحض هذه الفرية مقدماً إيضاحاً موجزاً حول قضية العبرية.. التي ليست إلا وهماً معقداً ومستمراً لشعوذة اشتقاقية لغوية، قد استطاع أن يجر كثيراً من الناس ليروا [العبرانيين]، وفي [ثقافتهم] الأجداد الساميين لتاريخ الشرق، ولتاريخنا نحن (في أوروبا) أيضاً. إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع [للعبرانيين] خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق. فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير تكشف أثراً قليلاً [للعبرانيين]. فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية، أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى، وحتى في الروايات الآرامية.. في ذلك كله لا تذكر كلمة [عبرية]. وأشهر ملوك التوراة داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبداً ذكر للملحمة المعزوة لعبور [العبرانيين] وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٨٠ - ١٩٢٥ فالعدم كامل مثلما هو قطعي وجازم[١٣].

لنغادر أراء " روسي " هذه، الجديدة والمفاجئة حتى لنا نحن عرب هذا العصر، ولنغادر كتابه القيم الذي هو جدال موسع محكم حول صحة

مقولاته وأطروحاته هذه، ولننظر إلى مفهومنا الديني عن [العبريين] عبر كتاب الله تعالى القرآن الكريم: فهل ثمة ما يشير إلى [العبريين] في القرآن الكريم؟! لم ترد كلمة [عبري / عبراني] في القرآن الكريم مطلقاً، فقد ورد ذكر الإسرائيليين بصيغة [بني إسرائيل] و[قوم موسى]، ذلك مما يدل على أن العرب في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يعرفوا اليهود بغير التسميات المذكورة، فلو كانوا يعرفون بـ [العبرانيين] أو [العبريين] لورد ذكرهم في القرآن بهذه التسمية. لنضف إلى ذلك أن [العبرانيين] مجهولون في الأناجيل، على أن هناك رسالة للعبرانيين في الأناجيل، ولكنها مرفوضة لأسباب مادية من قبل شُرّاح الكتاب المقدس، مرفوضة لأسباب مادية قبل كل شيء[١٤].

إنَّ تزايد التوطن في المرتفعات هو النتيجة الأكثر وضوحاً لإعادة ترتيب المجتمع الفلسطيني، إلا أنه لا يمكن أن يوصف بدقة على بأنه فريد أو أنه نتيجة لتسرب جماعة (إثنية) جديدة. وقد حدثت تحولات توطنية مشابهة في أماكن أخرى من شرقي المتوسط، وكانت جزءاً من دورة على مدى قرون من التطور والركود والانهيار والانبعاث والتجدد في تاريخ فلسطين [١٥].

وعلى أية حال، إن التحول الاستيطاني الذي حصل في نهاية العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، كان رد فعل على خلل طرأ على الحياة الاقتصادية كان له أثر كبير في كل جوانب المجتمع الفلسطيني ومستوياته، ولم يكن نتيجة مباشرة لصراع طبقي أو غزو أو تغلغل خارجي.

لذي يصعب على الباحث التفريق بين ما يمكن نسبته إلى هذه أو تلك المجموعات البشرية التي سكنت فلسطين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. فوجود هذا الصنف من الفخار أو ذاك في منطقة معينة لا يدل بالضرورة على سكنى هذه المنطقة من مجموعة إثنية مختلفة، ولكنها غالباً ما تعني أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثيرات خارجية سواء أكان عن طريق التجارة أو تنقل مجموعات حرفية، أدخلت هذه الصناعة أو أصبحت تقلدها. ويبالغ الأثريون والمؤرخون ومنهم التوراتيون بالحديث عن الهجرات في هذه المرحلة، ولا يركزون على التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها وحمل لواءها سكان فلسطين الأصليون، فمن المحتمل أن يكون قد سكن فلسطين في القرون الثلاثة الأخيرة للألف الثالث قبل الميلاد مجموعات بشرية مختلفة بالإضافة إلى غالبية السكان الفلسطينيين، إلا أنَّ من الصعب للغاية التعرف على هذه المجموعات من المصادر التاريخية المتوافرة لدينا، وإنها لصعوبة أكبر وخطأ منهجي كبير محاولة نسب مادة حضارية لمجموعة بشرية دون غيرها، خاصة أنَّ انتشارها يغطي كامل الأرض الفلسطينية ويتعداها إلى مناطق أخرى في الشمال والشرق. وقد قع في مثل هذا الخطأ المنهجي الكثيرون من الباحثين التوراتيين ونسبوا مجمل الحضارة المادية للعصر الحديدي المبكر إلى القبائل الإسرائيلية وأسموها [إسرائيل ١] اعتماداً على النصوص التوراتية وما يمكن أن ينسجم معها من تفسيرات لنتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية. وفي الحقيقة كانت غالبية مواقع العصر الحديدي الأول الرئيسية مأهولة بالسكان في المراحل البرونزية السابقة

رغم وجود عدد من المواقع التي تم تأسيسها في العصر الحديدي لأول مرة.

واختلفت مخططات المواقع السابقة بعض الشيء مع أنه يظهر في بعض المواقع إعادة استعمال الأساسات التي بقيت من العصر البرونزي الأخير. وبشكل عام فقد كانت مباني العصر البرونزي المتوسط والأخير تخضع للتنظيم، بينما نجد مواقع العصر الحديدي الأول أقل عدداً وتنظيماً ولا تتبع المدن مخططات متجانسة. وهناك بعض المواقع التي يحيط بها سور مزدوج - عبارة عن جدارين متوازين بينهما تجويف ويصل بينهما أحياناً جدران عريضة - ظهرت في تل القدح وتل قصيلة واشدود وتل الفول وتل الجزيري وتل بيت مرسيم وعراد وغيرها. ويتضمن العديد من هذه المواقع حصوناً دفاعية كتلك التي كشف عنها في تل الفول وتل القدح وخربة مشاش وتل القصبة وتل زورور. أما المباني العامة التي كشف عنها حتى الآن فمحدودة للغاية وأوضحها معبد تل قصيلة، وكذلك معبد بيسان (الطبقات الخامسة والسادسة) حيث لا يزال التأثير المصري واضحاً من خلال التفاصيل المعمارية والكتابات الهيروغليفية التي تتضمن تعيين رمسيس الثالث في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد لحاكم أو قائد عسكري اسمه رمسيس أوسر - خيبش ووجدت داخل المعبد مكتشفات دينية متنوعة بالأسلوبين المحلي والمصري وبعضها تقليد للصناعة المصرية.

تطورت البيوت السكنية في العصر الحديدي وأخذت طابعاً مميزاً طوال مراحل هذا العصر في كثير من المواقع، فقد تم الكشف عن أعداد

كبيرة من البيوت التي تضم ساحة أُقيم حولها مجموعة من الحجرات (٢ - ٤ حجرات) التي كثيراً ما تتوسطها أعمدة تدعم السقف. تضم الباحة في العادة آبار جمع المياه ومرافق الطبخ والتخزين. وقد شيدت هذه البيوت من الحجارة أو الآجر الطيني أو كليهما، أما حُفر التخزين فهي غالباً ما تكون مقصورة ومقطوعة في الأرض على شكل مجموعات وكأنها تخدم أغراضاً جماعية. وجدت مثل هذه المنازل في مختلف مناطق جنوبي بلاد الشام بما في ذلك مرج أبن عامر (تل المتسلم والعفولة) ووادي الأردن (تل القدح، تل السعيدية، وتل دير علا) وفي منطقة الجبال الغربية (تل الفارعة الشمالي، عين سمش، تل بيت مرسيم، تل بئر السبع، خربة مشاش، خربة الردانة، التل أو عي) ومنطقة الجبال الشرقية (سحاب، السماكية، طويلات، تل الخليفية).

نستنتج من هذا التوزيع صعوبة التعرّف، بل استحالته، على بناه هذه المنازل من الناحية الأثنية، مع العلم أن المنقبين الإسرائيليين والباحثين التوراتيين نسبوها إلى الإسرائيليين الأوائل (إسرائيلي١) دون توافر أي برهان على ذلك. بنيت هذه الآراء على مفاهيم توراتية لا علاقة لها بالمصادر التاريخية أو بالشواهد الأثرية، على أية حال. إن تطور هذه البيوت ليس مفاجئاً بل مستمداً من العمارة الفلسطينية التي ترسخت في الألف الثاني قبل الميلاد وقبل ذلك. لم يقتصر استعمال هذا النوع من البيوت على السكن وإنما استعمل بعضها كمرافق صناعية كتلك التي عثر عليها في تل بيت مرسيم وتل السعيدية وسحاب، حيث وجد فيها أعداد كبيرة من ثقالات النسيج وأدوات أخرى مرتبطة بهذه الصناعة. انتقلت

ادعاءات التوراتيين والأثريين الإسرائيليين من العمارة إلى المكتشفات جرة فخارية كبيرة الحجم تأخذ شكلاً شبه بيضوى ويلتف حولها بين العنق والكتف طوق ألصق بالإناء وعرف بالمصادر الأجنبية بـ (Collared - rimjar). وقد أشير في دراسة أخرى إلى أن وجود هذه الجرار مرتبط بالإنتاج الزراعي لسكان فلسطين والأردن لفترة طويلة من الزمن، ولا يمكن أن تكون من اختراع مجموعة بشرية دون غيرها، وإنما تطورت هذه الجرة عن جرار أخرى مشابهة لها عرفت في العصرين البرونزي الوسيط والأخير، وقد وجدت بأعداد كبيرة وفي مناطق مختلفة من الأردن وفلسطين تخرج عن إطار الخارطة الجغرافية لسكان العصر الحديدي الأول التي رسمها التوراتيون ومن يسير في فلكهم. لقد تبين أيضاً في الدراسة المشار إليها أنه تم إنتاج هذا النوع من الجرار في مراكز صناعية رئيسية وكان لابد من إنتاجها بمواصفات فنية محددة لتنسجم وحاجة الناس إليها، خاصة إذا علمنا أن أعداداً كبيرة من هذه الأواني الفخارية متجانسة في الحجم والشكل والتصنيع. والغريب في الأمر أن جميع المواقع التي وجدت فيها مثل هذه الجرة ذات الطوق وصفت بأنها إسرائيلية قديمة (Early Israelite) وتكاد تكون في كثير من الحالات المؤشر الوحيد لهذا التعريف [١٦].

وهكذا ما لبثت اللقى الأثرية الجديدة العائدة إلى العصرين البرونزي المتأخر والحديدي أن قادت إلى نقاشات شديدة، أن أفضتنا، خلال فترة تزيد قليلاً عن العقد، إلى انقلابات وتحولات مدهشة في فهمنا لهذه الفترة ذات الأهمية البالغة. فالعديد من الباحثين ما عادوا ينظرون إلى تدمير

المراكز الحضرية في فلسطين ونمو المئات من المواقع الريفية في المرتفعات والسهول بوصفها تأكيداً لقيام إسرائيل بإخضاع فلسطين أو لهجرة بني إسرائيل إلى داخل المنطقة. فقد بات الآن مسلماً به على نحو عام أنه كانت ثمة استمرارية ثقافية ذات شأن بين العصرين البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، وأن المئات من المواقع الصغيرة في المرتفعات والأطراف كانت بأكثريتها محلية أصلية. يؤكد " وليم دفر " ومعه عدد كبير من علماء الآثار الآخرين أن أواني هذه المواقع تظهر استمرارية واضحة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي. يقول " دفر ": " يجب التأكيد في ضوء علم الآثار اليوم أن ما يثير الدهشة، وعلى نحو متزايد مع تقدم البحوث، هو التواصل، لا التفاصل، على صعيد الثقافة المادية بين العصرين البرونزي المتأخر والحديدي الأول ". وما يهم هنا هو عدم وجود أي قطيعة ثقافية بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي [١٧].

يتضح من ذلك، أن اللغز بالنسبة إلى الآثاريين هو في أنهم قد افترضوا أن إسرائيل قد سكنت مناطق معينة من البلاد [فلسطين]، ولذلك صار من الممكن تمييز الاحتلال الإسرائيلي، وحتى بعد أن اتضح أن نماذج خزفية ومعمارية معينة قد عُثر عليها في أجزاء متفرقة من فلسطين، أو في مناطق لا يشير الكتاب [التوراة] على أنها إسرائيلية، فقد استمر السعي للعثور على إسرائيل. إن خطاب الدراسات الكتابية هو الذي شجع هذا السعي الأعشى نحو ماض متخيَّل، وهو وضع تعزز من خلال الحاجات السياسية لدولة إسرائيل لأن تجد لنفسها مكاناً في

الماضي. وعلى الرغم من أن الكم المتزايد من المعطيات الأثارية ونسب التوجهات التاريخية الاجتماعية إلى النصوص الكتابية قد بدد النموذج السائد، فقد ظلت له سطوته على تصورات الباحثين الغربيين والإسرائيليين ووعيهم بحيث أنه قد صمد بثبات في وجه التناقض المهيمن. وذلك هو أفضل التفسيرات لقوة خطاب الدراسات الكتابية في طمس التاريخ الفلسطيني وإعاقة أية تركيبة بديلة للماضي[١٨].

قلنا إن النظريات السائدة حول الكيفية المفترضة لنشوء «إسرائيل القديمة» ؟! في بلادنا فلسطين انهارت بمجرد عرضها على المكتشفات الآثارية التي أوضحت بأن سكان المرتفعات، لم يختلفوا عن باقي سكان بلادنا فلسطين. أي أن سكان هذه المستوطنات كانوا شعوباً محلية. فـ " الأبحاث الأثرية التي جرت في بلادنا فلسطين لا تشير على وجود مخلفات، كما هي العادة في المراحل المبكرة من مراحل الاستيطان بفلسطين، خاصة في فترة القضاة [المزعومة] فقد اختفي الفخار والأشياء الأخرى التي تميز العصر البرونزي الحديث تدريجياً. ولكن يصعب جداً أن نقول في أي موقع من المواقع إن هذه الطبقة كنعانية والثانية إسرائيلية "[١٩].

إذن لقد صارت كلمة (إسرائيلي) [*]، حين تطلق على تلك الأماكن بلا معنى، ويفترض " طمسن " أنه صار من المضلل التحدث عن (إسرائيلي) ضمن سياق آثاري حول فلسطين العصر الحديدي الأول وتقدم المعطيات الآثارية التي تغطي فترة الانتقال بين أواخر العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، ومطالع العصر الحديدي معلومات

قيمة حول الوضع السكاني والتوطن، والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني. ولكنها لا تقول أي شيء مباشر عن كيان كان اسمه إسرائيل (٢٠).

بناءً على كل ما سقناه آنفاً نتوصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم يشهد وصول جماعات معروفة بالإسرائيلية إلى المناطق الهضبية في بلادنا فلسطين. وإن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الإركيولوجية، لا مبرر لها.

آثار فلسطين.. تكشف زيف سفر يشوع:

يؤكد كثير من الباحثين التوراتين، ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي النظرية القائمة على دخولين منفصلين لفلسطين من الجنوب ومن الشرق، فقد أبانوا أن هناك مجموعة تسللت من الجنوب أولاً، وهناك مجموعة أخرى شمالية، وهي التي كانت العنصر المهم، وكان دخولها من الجهة الشرقية والشمال الشرقي. ففيما يتعلق بالدخول من الجهة الجنوبية، لا توجد شواهد أثرية مؤكدة، ففي نهاية القرن الثالث عشر ق. م، تعرضت المدن الفلسطينية إلى تدمير شامل ولكن هذا التدمير كان جزءاً من تدمير شمل المنطقة الممتدة من الأناضول حتى مصر، لقد كان هذا التدمير الذي سبب سقوط كثير من القوى العظمى بالمنطقة آنذاك، كان بسبب اجتياح شعوب البحر، الذي تشير إليه النقوش المصرية بأنه تم نحو عام ١١٩٠ ق. م، لقد عثر على كثير من الشواهد الأثرية لذلك التدمير في جنوب فلسطين في كثير من المواقع التي تعود إلى نحو عام ١٢٠٠ ق. م، ولكن لا يوجد لدينا دليل

نستطيع أن نقرر على ضوئه أن ذلك التدمير كان من أعمال شعوب البحر، أو نتيجة لتسرب الإسرائيليين أو حتى نتيجة الحملات المصرية ضد شعوب البحر، إن الشاهد المتعلق بهذا الدخول من الجنوب هو شاهد كنعاني [٢١].

وفي ذلك يقول " مايزر " إن استقرار الإسرائيليين في فلسطين " ليس إلا إحدى الهجرات في تاريخ هذا المعبر الجنوبي، أو هو إحدى قصصه المتأخرة، وهي تقع حسبما كان متواتراً بعد انهيار الدولة الحديثة في مصر وانتهاء حمايتها على سورية، ولما كانت لغة إسرائيل من طراز اللغة الكنعانية يمكننا أن نعتبر الغزو - مما وراء الأردن - موجة متأخرة من الحركة الكنعانية الكبرى " [٢٢].

وفيما يتعلق بالدخول من الشرق، فقد اجتهد علماء الآثار ليجدوا شاهداً، يعود لفترة الدخول تقدمه المواقع الأثرية في (إيدوم Edom) و(مؤاب Moab) و(عمون Ammon). فلقد كانت نتيجة المسح الأثري المتميز والواسع الذي قام به " نلسون جلويك " (Glueck) أنه أشار إلى فقر المنطقة بالمستوطنات خلال الجزء الأكبر من الألف الثانية ق. م. وتغير كل ما يحيط بالصورة حين عثر على لقى تعود إلى العصر البرونزي الوسيط والحديث في المناطق التي تجاور مدينة عمان. وهذا ما أكدته تنقيبات " كريستال بنييت " (Bennett) في موقع (أم البيارة Um elbiyara) وموقع (طويلان Tawilun) وعلى وجه الخصوص موقع (البصيرة Buseira) التي كانت على الغالب عاصمة الأدوميين، فلم يعثر على شاهد مؤكد يشير إلى مستوطنات حتى القرن التاسع ق. م تقريباً، أو

أحدث قليلاً حيث من المتوقع أن يظهر الكثير من الشواهد [٢٣].

أين معارك السفاح التوراتي يشوع بن نون؟!:

في سياق الحديث عن أسطورة غزو الإسرائيليين لفلسطين من الشرق، وعن حملات السفاح التوراتي " يشوع بن نون " هناك ثلاثة مواقع يمكن أن تقدم شاهداً وتساعد على تكوين تأريخ وهي: (أريحا)، (عاي)، (جازور) التي نقبت على نطاق واسع. بدأت أعمال التنقيب في أريحا بعمل سبر صغير في عام ١٨٧٦، ثم نقبت فيها بعثة أثرية نمساوية - ألمانية من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٠٩؛ وبعثة أثرية بريطانية بإدارة الأستاذ " جون جارستانج " (Johan Garstang) من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٦؛ وبعثة بريطانية من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٨ بالتعاون مع أمريكيين وكنديين في عدة مواسم.

زعم في التنقيبات التي جرت في الفترة ما بين (١٩٣٠ - ١٩٦٣) أن شاهد الغزو قد عثر عليه مجسداً في خرائب المدينة أي (أريحا) نحو عام ١٤٠٠ ق. م. أخذ بهذا التاريخ، وهذا الادعاء المبني على اكتشاف أسوار المدينة التي قيل وظهر في نصوص عدد كبير من الكتب الإفرنجية والعربية ثبت بطلانه تماماً الآن.

وقد أوضح البروفيسور الألماني " أرنست سيللين " (Ernest Sellen) وذلك عندما نشر نتائج أعماله التنقيبية في (أريحا) ١٩١٣ واصلاً إلى نتيجة أن الكنعانيين سكان المدينة قد تعرضوا للدمار ما بين ١٦٠٠ - ١٥٠٠ ق. م عندما كانت أحد المراكز المهمة للهكسوس. وعليه

فمن المحتمل أن الدمار الذي لحق ببعض المدن الكنعانية قد تم على يد الفراعنة، أثناء مطاردة الهكسوس أو أثناء إخماد ثورات العابيرو [٢٤].

وقد أكدت هذا الرأي الآثارية البريطانية " كاثلين كينون " (Kathleen Keny) التي قامت بالتنقيب والحفر حول مدينة (أريحا) فبرهنت الحفائر التي قامت بها أن مدينة أريحا كانت غير مأهولة في ذلك الوقت في القرن الثالث عشر ق. م - فمدينة العصر البرونزي الوسيط كانت قد دمرت نحو ١٥٥٠ ثم هجرت بعد ذلك. وفي القرن الرابع عشر، سكنت بصورة ضعيفة، فقد وجدت آنية من الفخار ترجع إلى ذلك العصر داخل مقابر العصر البرونزي الوسيط التي استخدمت مرة أخرى، ومنزل به إبريق صغير يرجع إلى منتصف القرن الرابع عشر. ولا شيء ينتسب إلى القرن الثالث عشر، ولا توجد أية آثار لحصون العصر البرونزي الحديث، وكانت النتيجة التي توصلت إليها الدكتورة " كينون " أنَّ من المستحيل ربط تدمير أريحا بدخول الإسرائيليين في نهاية القرن الثالث عشر ق. م [٢٥].

وأخيراً قام العالم الأثري الإسرائيلي البروفيسور " زئيف هرتسوغ " بدحض فرية تدمير (أريحا) على يد يشوع بن نون قائلاً: رغم كل أعمال الحفر والبحث فإن علماء الآثار لم يجدوا أي دليل على أن جدران أريحا الضعيفة انهارت كما وصفها يشوع في القصة التوراتية، وليس هذا فحسب ولكن ليس هناك ما يدعم قصة المعجزة العظيمة التي تلي انهيار جدران أريحا كما ترويها التوراة. ويستطرد قائلاً " إن كل الأحداث المذكورة في التوراة تتناقض تماماً مع ما توصل إليه علماء الآثار " [٢٦].

ويذكر " ج. كونتو " أنه قد حدث زلزال عام ١٣١٦ ق. م ومس البلاد الآتية: بيت مرسيم، وأريحا، ومجدو، وبيسان، وتل الحصى، وعسقلان، وطرطوس[٢٧]. وبذلك نصل إلى أن " قصة احتلال (أريحا) إما أنْ تكون مختلقة اختلاقاً أو كما يقترح البعض أنها من المرويات " [٢٨].

وهكذا الحال بالنسبة للاستيلاء على مدينة (عاي)، فقد قامت بعثتان بالحفر والتنقيب في الموقع، وجاءت النتائج متطابقة، وهو أنه لم تكن توجد مدينة وقت قدوم الإسرائيليين، ولم يكن هناك ملك لـ (عاي) فقد كانت هناك أطلال تعود إلى سنة ١٢٠٠ ق. م [٢٩].

وفي عام ١٩٦٥ م كتب أحد العلماء الذين نقبوا هناك، وهو " بريتشاد " (James Pritchard) من جامعة برنستون Princeton، أنه ليس هناك شك بناء على أفضل ما يتوافر من شواهد في أنه لم تكن هناك مدينة معاصرة ليشوع [٣٠]. وبذلك فإنه من المحتمل ألا يكون هناك أساس تاريخي لقصة الهجوم على (عاي).

أما فيما يتعلق بمدينة (جازور) فقد دمر " سيتي الأول " المدينة في القرن الرابع عشر ق. م، ربما نحو ١٣١٨، أو ربما عام ١٣٠٠ ق. م، ولكن سرعان ما أعيد بناؤها دون تغيير في مخططها في الغالب، ولكن المباني كانت بسيطة. ومرة أخرى دمرت المدينة، كما هو واضح بعد فترة قصيرة وحرقت بعنف، وبالتأكيد فإن الفخار الذي عثر عليه في المراحل الأخيرة من العصر البرونزي الحديث المتأخر يعود إلى نهاية

القرن الثالث عشر ق. م، عانت (جازور) بعد ذلك اضمحلالاً، إذ ظلت المدينة المنخفضة مهجورة باستمرار، وعليه يمكن القول بأن هناك فاصلاً بين تدمير (أريحا) وتدمير (جازور) في أقصاه يمكن أن يكون خمسين عاماً وفي أقله يمكن أن يكون خمسة وعشرين عاماً [٣١].

أما فيما يخص (حاصور) فينفي " طمسن " فريّة تدمير (حاصور) قائلاً: " إن وجود انقطاع في استيطان حاصور في نهاية العصر البرونزي الأخير لا نزاع حوله، ولكن مدة هذا الانقطاع تبقى غير مؤكدة في أي حال، ومن غير المحتمل أبداً أنه كانت هناك علاقة تاريخية بين الدمار الشامل الناجم عن الحريق في حاصور في أواخر العصر البرونزي الأخير، وأي من المستوطنات الجديدة في العصر الحديدي الأول والجليل، وحتى الاستيطان الثاني في حاصور. وفي الواقع إذا اعتمدنا التسلسل الزمني الذي وضعه (فنكلشتاين) يصبح من الضروري أن نستنتج أن منطقة الجليل بكاملها قد شهدت فجوة في الاستيطان الزراعي لمدة قرن كامل. ويذكر في موضع آخر أن مدينة حاصور في العصر البرونزي الأخير انتهت مثل (أوغاريت) بدمار شامل وحريق، ومثل أقرانهم في (أوغاريت) لم يكن سكان طبقة هذا العصر في حاصور قادرين على إعادة البناء والاستمرار في الموقع بعد الدمار، وبالفعل تشير الفجوة في الموقع إلى أنَّ أرضهم لم يأخذها منهم عدو عنوة، بل إنها هجرت رغم وجود سلسلة من الأسباب المحتملة التي أدت إلى هذا الاقتلاع الجذري لعدد كبير من السكان، فلا الغزو ولا التوسع الاستثماري يحتمل أن يكونا بينها، وبالفعل فإن عدم قدرة السكان على

إعادة البناء لا تستتبع، بل لا توحي بضائقة حادة وفقر واضطراب سياسي. منذ فترة ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م، تقريباً (فترة القرنين التي شهدت تغيرات جذرية عديدة في كافة مناطق المتوسط) هناك بيانات وفيرة تؤيد حصول جفاف طويل الأمد ومجاعات توجت الانهيار الاقتصادي والسياسي في العصر البرونزي الأخير، التدهور واسع النطاق في الحوض الساحلي للمتوسط توافق مع تغير مناخي عالمي[٣٢].

وقد أكد هذه الأبحاث السيد " بروشي "، المسؤول المتقاعد عن مخطوطات البحر الميت الذي ذكر " أن المدينة - أريحا - أخليت بداية القرن ١٥ ق. م إلى نحو القرن ١١ ق. م، والشيء نفسه تقدمه الأثريات بالنسبة للمدن الأخرى، ويقول بروشي إن تلال يهودا والسامرة (الضفة الغربية الفلسطينية) لم تكن مأهولة في تلك الفترة، أي لم يكن هناك مدن باسم عاي وجازور وأريحا، ولم يكن الداخل بحاجة لتدمير وقتل لكي يستوطن؟ [٣٣].

وها هوذا " جيمس بريتشاد " (James Pritchard) يؤكد بعد تنقيبه في فلسطين: " أن التناقضات الواضحة التي كشفت عنها نتائج التنقيب الأثري في (أريحا) وغيرها من المواقع التي تحدث عنها سفر يشوع تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على شواهد أثرية لإثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية ".

ويؤكد " د. عفيف بهنسي "، المدير العام السابق للآثار في سورية، " أن جميع الجهود الأثرية المبذولة في بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) لم تقدم أي دليل تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية " [٣٤].

ويذكر عالم الآثار الإسرائيلي " زئيف هرتسوغ " في تقريره المثير للجدل «التوراة: لا إثباتات على الأرض » أنَّ الحفريات المتكررة التي أجرتها بعثات مختلفة في (أريحا) وفي (عاي) المدينتان اللتان يذكر وصف احتلالهما بالتفصيل الدقيق في سفر يشوع - خيبت الآمال جداً. فرغم مساعي الباحثين تبين أنه في أواخر القرن الثالث عشر، في نهاية العهد البرونزي المتأخر، وفي الفترة المتفق على أنها فترة الاحتلال، لم يُعثر أبداً في هذين الموقعين على أي أثر لمدينة، بالتالي لم تكن هناك أسوار يمكن هدمها. ولذلك فإن باحثي التوراة اقترحوا منذ يوبيل من السنوات النظر إلى قصص الاحتلال هذه بوصفها مجرد أساطير ليس غير، ولكن، بقدر ما كانت تزداد المواقع التي تكتشف ويتبين أن هذه المواقع السكنية خربت أو هجرت في فترات زمنية، كان الاستنتاج الذي يتعزز هو أنه ليس هناك أساس واقعي لقصص التوراة عن احتلال أرض (إسرائيل) على أيدي أسباط (إسرائيل) في حملة عسكرية بقيادة يشوع (٣٥).

ويرى البروفيسور " يسرائيل فنكلشتاين " عالم الآثار الإسرائيلي في جامعة تل أبيب، أن الدراسات أظهرت أن أريحا لم تكن محاطة بسور قط في الفترة المذكورة، وهي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أي ١٣٠٠ قبل ظهور يسوع المسيح، فترة العصر البرونزي المتأخر، وفي مواقع كثيرة ورد ذكرها في التوراة لم يوجد أثر لأي موقع سكاني، أي أن دمار المدن الكنعانية لم يكن نتيجة لحملة احتلالية واحدة بقيادة عسكري واحد يشوع بل عملية متواصلة لفترة مئة عام على الأقل تدمرت خلالها مدون،

وتجمعات سكنية في المنطقة[٣٦].

وبذلك لم يعد الدارسون يجدون براهين اركيولوجية ظاهرة على غزو إسرائيل لمدن كنعانية / فلسطينية في مواقع (عاى) و(أريحا)، وعدم قدرة العوامل الأركيولوجية على التميز بشكل واضح بين المجموعات الإثنية الإسرائيلية والكنعانية يجعل مسألة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي غير صالحة كدليل على فتح إسرائيلي [٣٧].

وينتقد " لمكة " بشدة نظرية الغزو، بقوله: " إن موجة الغزو عندما تصل إلى التدمير وإعادة الاستيطان، تكون على نحو ما واضحة كما تصورها المؤيدون لهذه النظرية، لكن الآثار تظهر أن أريحا لم تكن موجودة أيام يشوع [من المحتمل أنها قد دمرت قبلئذ في منتصف القرن السادس عشر قبل التاريخ الشائع]. ولأن يشوع لم ينهب ولم يحرق مدينة باسم عاي، فقد كانت هذه المدينة خراباً منذ عام ٢٣٠٠ ق. م. عندما هُجرت في نهاية العصر البرونزي المبكر. ولم يُعد بناؤها أبدا، الاسم يقول هكذا إذ يعني (تل)، لذلك فإن يشوع قد غزا تلاً مهجوراً كان موجوداً في الجوار لمدة ألف سنة! أخيراً سيكون من عاني المشكلات للتوصل إلى ميثاق مع سكان قرية جبعون، نظراً لأن هذه المدينة لم يجر تأسيسها، ولم تكن سوى قرية، في القرن الثاني عشر قبل التاريخ الشائع، أي وفقاً لتقدير الأثريين الذين نقبوا عن جبعون في الستينيات. في الختام، من دون أن تكون بحاجة لأية حجة أخرى، فمن السهل أن نثبت أن غزواً مثل الغزو الموصوف في سفر يشوع لم يحدث أبداً[٣٨].

ويقول الأب " مايكل برير " حول اقتحام القبائل الإسرائيلية للمدن

الفلسطينية: " هناك إجماع فعلي في الآراء بأن نموذج الفتوحات القبلية كما هو مرويّ في سفر يشوع (١٢ - ١) هو نموذج لا يمكن الدفاع عنه إذا ما وضعنا دليل <الكتاب> جانباً، فلن يكون لدينا أي دليل على وجود فتوحات عبرية [الأصح إسرائيلية]، بل أكثر من ذلك، فثمة إجماع علمي بأن القصة الكتابية التي تصف فترة الاحتلال التوطني جاءت عن طريق المؤلفين الذين كتبوها بعد عدة قرون، لا عن طريق الأحداث الموصوفة (سواء في فترات السبي، أو ما بعد السبي) التي لا تستند إلى معلومات يمكن الاعتماد عليها عن الماضي السحيق [٣٩].

ومن ثم وتلخيصاً لما أوردنا، يتضح انهيار أي نظريات قائمة على الغزو والفتح والاقتلاع، وتبدو من جهة أخرى مستبعدة لا سيما بسبب وجود فجوات دامت قروناً قبل العودة إلى الاستيطان في المنطقة.

ما كان داود وسليمان التوراة يوماً في فلسطين! :

لما كان داود وسليمان التوراة يشكلان مرتكزاً وأساساً للمزاعم الصهيونية، ولما كان ينظر إليهما، كما هو الحال، كجد للصهيونية المعاصرة، فيجب أن نوضح أن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن المملكة الداودية - السليمانية ليست ذات أهمية تاريخية وأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك. فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في ١٤/٥/١٩٤٨ أشار إلى " إعادة بناء الدولة اليهودية " (re - establishment of the Jewish state)، وما هذا التعبير إلا صياغة

لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عاماً من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن " إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ".

إن الباحثين التوراتيين وكذلك علماء الآثار قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها داود وابنه سليمان وتصورا أن هذه المملكة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك " الحقيقة " المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالاً لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه " الحقيقة " المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني وثقافته، مع إغفال التاريخ الذي بقي آلافاً من السنيين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

وفي ذلك يقول " لورنس دفدسن " في دراسته القيمة - الأثريات الكتابية والصحافة: «صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب»: إن علم الآثار في فلسطين، شدد على مواقع العهد القديم. إن العهد القديم، وبالتالي التاريخ اليهودي القديم في فلسطين (كما هو مصور في التوراة) هو الذي سعى اللاهوتيون إلى إثبات صحته. وحتى أولئك المسيحيون، الذين اعتبروا فلسطين وطناً ليسوع، كانوا سيجدون أنفسهم، جراء اتباعهم تغطية علم الآثار في فلسطين، أنه قد تمت إعادة توجيههم نحو في فلسطين الملكين داود وسليمان، وخلفائهم ما قبل المسيحية، رغم بقائها ذات أهمية دينية. ففيما سعى الصهاينة مادياً إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي، ساهم عمل علماء الآثار في

تحويل فلسطين، على الصعيد النفسي، إلى أرض يهودية[٤٠].

من القضايا المهمة التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحياناً كثيرة المغالاة فيها موضوع و " المملكة الداودية - السليمانية "، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين وساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة الممتدة من (٩٦٠ - ٩٣٠ ق. م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب. وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان واعتباره العصر الذهبي الإسرائيلي، والإشادة بما يقال عن انجازات عصرهما الثقافية والعمرانية والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور، على أثر واحد على الأقل يعود إلى تلك المرحلة عمرانياً كان أم وثيقياً أو نقشاً، أو ما إلى ذلك، لكن الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، على المملكة الداودية - السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. لا شك في أن للباحث أن يطرح تساؤلات في حالة انعدام الوثائق والبيانات، فالمملكة الدوادية - السليمانية المزعومة التي تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين،

كما يزعم بعض الباحثين الغربيين ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن في جامعتنا ومراكز أبحاثنا، لابد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الدوادية - السليمانية؟!

وإذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان. فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علماً بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفاً تاريخياً للمرحلة نفسها.

ويعلن " أمنون بن ثور "، عالم الآثار في الجامعة العبرية، أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان إلا هنا[٤١].

ففي السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الدوادية - السليمانية يتداعى تدريجياً، وإن كانت هذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، ومن يواليهم أصحاب الفكر الآسن حراسه من بعض الأكاديميين العرب. فقد أصدر " ليتش " نقداً معتدلاً في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية من منظور (أنثروبولوجي) بنيوى. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصاً مقدساً لا يوفر مصدراً تاريخياً ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند " ليتش " تبريراً للماضي يكشف عن عالم القصّاصين أكثر مما يكشف عن أية حقيقة تاريخية. ويطرح أسئلة مهمة جداً تثير شكوكاً حول التقديمات السائدة لحكمي داود وسليمان، وتُسائل تاريخية هذه المرحلة الهامة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ أنا شخصياً أرى ذلك غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين البطلين

أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولو لا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضاً بالتأكيد [٤٢].

ومما قاله العالم " روني ريك " في هذا الصدد: " آسف أن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة " [٤٣].

إن السمة الأكثر إدهاشاً في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي ساهم بشكل أساسي القوى ضمن مشروع، وتحديداً بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابه التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح " غاريبيي " و"ليتش"
و " فلاناغان " أن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية بوصفها تعبيراً عن ثقافة حضارة نهضوية ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع[٤٤].

ويشير " مِلَّر " إلى أنه ليس هناك دليل على المملكة الداودية - السليمانية خارج التقاليد والموروثات الكتابية، المؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون مسبقاً صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري [٤٥].

شكك عالم الآثار الإسرائيلي " يسرائيل فنكلشتاين " من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة " جيروساليم ريبورت " الإسرائيلية توضح فيه وجهة نظر " فنكلشتاين "،

الذي أكد أنه لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له والذي سيأتي (الميا) من صلبه للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكداً أن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحد مملكتي يهودا وإسرائيل هو مجرد وهم وخيال لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل وهو سليمان بن داود مشكوك فيه أيضاً (٤٦).

يقول العلاّمة " طمسن " في كتابه الجديد «الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)» : " جرى تقديم [القرن العاشر ق. م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة التي تضم السلطة السياسية لشاول وداود وسليمان وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل الذي بناه سليمان بوصفه مركزاً لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلاً على وجود هيكل في أورشليم في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا

بوصفه فجوة في معرفتنا ومعلوماتنا حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع ولا سياق، لا شيء مصطنع أو أرشيف يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم على دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية [٤٧].

إذن لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاول وداود وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً.. لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاول أو لأي داود ليكون ملكاً عليها، ببساطة لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصادات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحداً بكثير مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن تاريخياً عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقاً، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قروناً عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية المتمتعة بالحكم الذاتي[٤٨].

إن الصورة التقليدية التي تقدمها أسفار العهد القديم عن أورشليم مطلع العصر الحديد الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة

جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. وفي المقابل، فإن مؤلفات صدرت حديثاً لـ " طمسن "، و " ديفيد جميسون درايك "، تري أن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، لم تكن أكثر من بلده صغيرة لعبت دور السوق المحلى للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت حتى الآن لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة تشغلها بصورة رئيسية الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن ٣٠ أكراً، ولم يسكن فيها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة تحتوى على أبنية عامة ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة لأن بلدة - عصر البرونز الوسيط لم تكن قائمة خلال عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة " (٤٩).

يقول " أ. فنكلشتاين " و " ن. سلبرمان ": " وكما رأينا، فإنه لا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم " (٥٠).

لقد انزعجت مجلة bar من هذا الاتجاه لأنها متخصصة في الدعاية لإسرائيل، وخاصة في مجال الحفريات، فجمعت العلماء من الاتجاهين المختلفين. حيث كان يمثل مدرسة كوبنهاجن شيفلد الأستاذين: " طمسن و " ليتش "، وكلاهما من جامعة كوبنهاجن. وكان يمثل الطرف الثاني: الأستاذ " وليم ديور "، من جامعة أريزونا، وهو يعتبر ذا شهرة عالمية

في مجال دراسة الآثار في فلسطين. والأستاذ " كائل ميك آرثر "، من جامعة جون هوبكنز. ونشرت المناقشات التي دارت بين الفريقين على صفحات مجلة bar نفسها في يوليو/ أغسطس ١٩٩٧. لقد نفى " طمسن " أن تكون يوروشليم عاصمة للمملكة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد ذكر الباحث الإسرائيلي " اسيكشن "، ووافق عليه " فينكلشتاين " أيضاً بأنه لا يوجد في الحفريات البقايا من الأواني الفخارية من القرن العاشر قبل الميلاد، أي من عصر داود وسليمان، ولذلك استنتج " ليمش " أن داود الملك المذكور في العهد القديم لا يمكن إثباته تاريخياً. قال " ديور " في مناقشته: لم لا تقول إنه من الممكن أن يكون، ومن الممكن كذلك أن لا يكون؟ قال " ليمش " رداً عليه: لأن العهد القديم يصوره إمبراطوراً، كان يحكم من الفرات إلى النيل، وقد أضاف سليمان إلى هذه الإمبراطورية مساحات أخرى، لذلك لا يمكن أن يكون داود شخصية تاريخية. ووافق " ديور " نفسه على هذا القول، واتفق مع " ليمش " بأنه لا يوجد داود وسليمان بهذا المفهوم [٥١].

وفي استعراض " غبريل باركاي " (Gabriel Barkay) لآثار فترة العصر الحديدي الثاني يتوصل إلى الاستنتاج الذي يقول: " إن التحديد الدقيق لتاريخ طبقات التوطين ومجموعات اللقى العائدة للقرنين العاشر والتاسع قبل التاريخ الشائع محفوف بالمصاعب ". كما يضطر لأن يستنتج أن
" فكرة المجد " التي تنبثق من الروايات الكتابية لا تتطابق مع " الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية " [٥٢].

مما يجدر ذكره في هذا السياق، أن الوثائق الأثرية لا تذكر مملكة إسرائيل قط، كما لا تأتي على أي ذكر لداود أو سليمان في بلادنا فلسطين. ولكن يرى بعض الآثريين التوراتيين، ويساندهم في ذلك أصحاب الفكر الآسن العربي وحراسه، أنه يتعين الآن تخفيف حده الهجوم على داود مع اكتشاف نقوش (تل القاضي / Tel Dan). فخلال موسم التنقيب لعام ١٩٩٣ بموقع تل دان المزعوم، اكتشف عالم الآثار الإسرائيلي " أفراهام بيران " (Averaham Biran) قطعة من نقش محفور على الحجر، سرعان ما صار موضع جدل حامى الوطيس بين الباحثين الكتابيين، نظراً لأهميته في الإجابة عن السؤال المتعلق بتاريخية الملك داود. والأهمية تأتي من ورود تعبير (بيت داود / Betdawod) في السطر التاسع من القطعة الأولى للنقش. وبعد هذا الاكتشاف بسنتين أي عام ١٩٩٥ عُثر على نقشين آخرين قد تكون القطعتان الجديدتان جزءاً من القطعة الرئيسية التي احتوت على النقش السابق، وربما لا، وقد جرت العادة على الإشارة إلى هذه القطع الثلاث بالرموز (A) للأولى و(B1) و(B2) للقطعتين الجديدتين [٥٣].

بعد ذلك كله يتبقى السؤال الأهم: هل هناك إشارة في النص إلى الملك داود، أو إلى يهوذا؟ يزعم الباحثون التوراتيون ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أن هذه النقوش ذكر فيها داود. فقد نظر هؤلاء إلى الإشارة إلى تعبير (بيت دود / Betdawod) في السطر التاسع من النقش على أنها لا تثبت وجود داود

التاريخي فحسب، وإنما تؤكد صحة روايات التوراة حول الملك داود.

لكن هذا يتناقض مع المنهج المتحفظ لعلماء الآثار الذين نقبوا عن هذه القطعة، ويتعارض مع ما نشروه من هذا الجزء، فيذكر العالمان " بيران " و " نافيه " أن طبيعة المصادر التوراتية من جانب، والطبيعة الجزئية لنقش دان من جهة أخرى، لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطعة. قد تكون هناك تفسيرات أخرى محتملة. ولن يمدنا بالدليل إلا اكتشاف قطع إضافية من هذا النقش للإجابة عن الأسئلة التي أثارتها اكتشافاتنا لهذه العينة.

أما العلاّمة " طمسن " فيذكر في كتابه «الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)» : ".. ك بيتدود ". سرعان ما قرئت الأحرف " ملك بيت داود ". وقد حدد تاريخ النقش بأوائل القرن التاسع قبل الميلاد. كان يعتقد أنه يروي قصة معركة وصفت في سفر الملوك الأول (١٥: ١٦ - ٢٠) وهو حدث يعود تاريخه إلى عام ٨٨٣ ق. م. هذا النقش الجديد لم يكن فقط أقدم إشارة معروفة إلى ملك إسرائيل، وإن يكن غير مسمى، بل زعم أيضاً أنه يقدم الدليل القاطع على أن داود الكتاب كان موجوداً ذات مرة وكان المؤسس للسلالة الحاكمة ليهوذا في أورشليم. وقد احتفت المجلات العلمية، إضافة إلى الصحف والمجلات الشعبية، بهذا الاكتشاف بحماسة كبيرة. مع ذلك كان ثمة مشاكل مع الاكتشاف، مع قراءة النص وتأريخه وتفسيره، لم تحل حتى الآن. ويستطرد " طمسن " بقوله: إن قراءة [حرف] >ك< على أنه الحرف الأخير من كلمة (ملك) إنما كان مجرد تخمين بالطبع، لا شيء في النقش ذاته يقضي بأن تربط كلمة أو اسم <بيت داود> مباشرة بأورشليم أو يهوذا، فقد كان من الممكن أن تشير

إلى مكان أقرب كثيراً إلى تل دان. كما في أسماء أماكن كثيرة، فإن (بيت) يمكن ترجمته بمعنى بَيْتْ ويعكس اسم المحمية التي تحكم البلدة. كذلك بشكل عام، خصوصاً عندما يضم إلى اسم أو نعت إله أو آلهة، ترجمته بمعنى (معبد / هيكل)، هذا ما نجده بين أسماء أماكن في فلسطين مثل بيت إيل [تعنى معبد الإله]، وبيت دجن. يضيف " طمسن " أن الكتاب لا يستعمل المصطلح (بيت داود) بالطريقة التي يستعمل بها البريطانيون مصطلحاً مشابهاً هو (بيت ستيوارت) [House Of Stuurt] أي بالمعنى المحدد لسلالة حاكمة. ويتابع " طمسن " تحليله لهذا النقش قائلاً: عندما تم نشر المزيد من كسر النقش أو النقوش المتصلة به، أصبح إثبات أن القراءة الأصلية أكثر مراوغة حتى. في حين أنني أصبحت مقتنعاً بأن الكسر المنشورة تعود في الحقيقة ليس إلى نقش واحد بل إلى نقشين مرتبطين مختلفين، فقد وجد باحثون آخرون مؤشرات قادتهم إلى المجادلة بأن النقشين هما شيئان مزيفان. في الوقت الحالي فإن هذه القضية غير محلولة وتنتظر تقصى إدارة إسرائيل الآثارية [٥٤].

أن هذا النقش الذي دخل في " علم الآثار التوراتي " على أنه أول وثيقة من " مصدر مستقل " تثبت الصلة ما بين الرواية التوراتية والآثار، لم يستطع أن يقف صامداً أمام النقد الصارم الذي وجه له والذي أظهر في النهاية أنه " مزيف ". وقد أثبت الزيف طائفة من علماء الآثار واللاهوت واللغات السامية القديمة والنقوش (الإبيغرافيا). أهمها " فرد كراير " والمستشرق الإيطالي " جيوفاني غاربيني " (Geovani Garbini)، الذي عدّته أوساط الدراسات التوراتية بمثابة الخوارجي الرجيم، بعد أن

نشر كتابه المعروف - History and Ideology in Ancient Israel - عام ١٩٨٦. وعلينا هنا ألا ننسى أن " غاربيني " هو باحث على درجة عالية من الكفاءة في اللغات السامية الغربية ويضمنها الآرامية.

لقد عبّر " غاربيني " عن اقتناعه التام بأن نقش تل دان هو نص مزور. وأن الحالة المادية للنصب الحجري هي أفضل من أي نصب آخر ينتمي إلى تلك الفترة. إنه يبدو وكأنه نص نُقش حديثاً. أما لغته فآرامية ذات طابع عام، أي إنها تحتوي على ذخيرة من الكلمات المتداولة في غير العصر الذي ينتمي إليه النقش، قد احتوائه على كلمات تنتمي إلى عصره. ومن ناحية ثانية يرى " غاربيني " تشابهاً في أسلوب التعبير والأفكار بين نقش تل دان ونقش ميشع ملك مؤاب. وهذا يعني أن الشخص الذي كتب نص تل دان كان مطلعاً على نص ميشع، وأنه قلد العديد من جمله وعباراته.

أما الباحث " كراير " فيبني نظريته في تزوير النص اعتماداً على فحصه المباشر لقطع النقش في متحف إسرائيل. وقد بسط نظريته هذه في محاضرة شفهية ألقاها في ندوة متخصصة بكوبناغن منذ عدة سنوات، حيث وزع على الحضور صورة فوتوغرافية التقطها زميله الأمريكي " رونالدغميركن"
(Ronald Gmyrkin) للقطع في متحف إسرائيل بالقدس. تُظهر الصور الجوانب المكسورة من القطعة (A) وعليها آثار من الأزميل الذي استخدمه من كتب النقش على الحجر، بحيث أن رسم بعض الحروف قد استمر من السطح الأمامي للنقش إلى الجانب المكسور. وبما أنه من

المفترض أن الكاتب قد نقش نصه على سطح النصب قبل أن ينكسر، فإن مثل هذه البقايا على الجوانب المكسورة لا يمكن أن تدل إلا على أن الكتابة قد حصلت على قطع مكسورة من حيث الأصل، وأنها حديثة العهد. (٥٥).

أما " ناداف نعمان " (Nadav Neeman)، المؤرخ والأستاذ في جامعة تل أبيب، فقد ألقى ظلالاً كثيفة من الشك على هذا النقش حتى مال إلى رفضه، وهو يعلل ذلك بما يلي: " إن النقش مثير للشك والجدل، فهو ليس كأي نقش ملكي من الشرق الأدنى القديم أنا على دراية به، فهو وحيد في نوعه في جميع الأحوال، إنه يحتوي على كلمات عديدة لا تظهر في التوراة، وخاصة خاتمة هذا النقش المفترض به أن يكون ملكياً وهي تدعو إلى أن تحل بركة الرب على الشعب، ذلك بأن النقوش الملكية من الشرق الأدنى القديم المعروفة لدينا تنتهي عادة بإنزال اللعنة على أي شخص يصيب النقش بالضرر، أو تنتهي أحياناً باستمطار البركة على الشخص الذي كتب النقش، أما الدعاء بالبركة على الشعب فليس هناك شيء آخر يشبهه ". كذلك يرى أن التأكيد الذي جاء في النقش على مساهمة الشعب في يهوذا بأعمال الترميم التي قام بها يهوآش في المعبد هي حالة فريدة، لأن العادة جرت في النقوش الملكية على تأكيد الملك على نشاطاته هو شخصياً مع تجاهل تام لجميع الآخرين الذين شاركوا في البناء، ومع هذا فهو يتساءل: أليس من الجائز أن يكون ملوك يهوذا قد كتبوا بأسلوب مغاير لما فعله أندادهم غير اليهود في الشرق الأدنى القديم؟ وهو يجيب بأن الوسيلة الوحيدة لإثبات أو عدم إثبات الزعم

بوجود أسلوب كتابة مختلف في يهوذا هي العثور على نقش ملكي يهوذي آخر يمكن أن يشكل أساساً للمقارنة.

غير أن الشكل الأسلوبي للنقش لم يكن هو موضوع النقد الوحيد، فقد توقف آخرون عند اللغة المستخدمة فيه، وفي هذا الصدد توصل " إد. جرينشتاين " (Ed Greenstein) خبير اللغات السامية والأستاذ بجامعة تل أبيب، إلى أن هناك استعمالات لغوية وردت في النقش لا تنتمي إلى عبرية القرن التاسع قبل الميلاد، الزمن المفترض للنقش، بل هي استعمالات أخذت دلالاتها بعد ذلك بقرون وأساء أو أخطأ من اختلق هذا النقش عندما أدرجها في النقش على أنها قديمة، ومن هذه الاستعمالات تعبير (ب ي د ك ب ا ي ت) bedek bayit وفق ما رسمه " جرينشتاين " بالأحرف اللاتينية الذي يعني في العبرية التوراتية " تشققات البيت " وقد ورد في النقش أن يهوآش صنع هذه التشققات ما يعني أنه سبب تصدعات في البناء وخربه وهو خلاف ما قصد من النقش، فقد أراد مختلقه أن يقول أن يهوآش عمل ترميمات في البيت فاستعار تعبير bedek كما تطور في العبرية الحديثة بمعنى " الترميم " دون أن يعرف مدلوله القديم، كذلك استعمل مختلق النقش كلمة (ي د و ت) edut بمعنى الشاهد: " ليكن هذا اليوم شاهداً " على العمل، بينما لم تعرف العبرية التوراتية القديمة هذه الكلمة بهذا المعنى، فقد كانت تشير إلى معنى " الميثاق " أو " الاتفاق " وتطور بعض مشتقاتها في العبرية الحديثة ليعني " الشاهد " فانتزعها المختلق من هذا الاستعمال الحديث واستخدمها في النقش " القديم " ويستخلص جرينشتاين

من هذين المثلين وغيرهما أن النقش مزور بالتأكيد.

كذلك تعرضت الأحرف التي كتب بها النص للنقد الشديد وهي قد أظهرت زيف النقش، فـ " روبرت دويتش " (Robert Deutsch) «من جامعة حيفا، وهو نفسه تاجر آثار »، وجد أن النقش " تزييف هزيل وكائن خرافي هجين، فقد جمع معاً ما بين الأحرف المؤابية والفينيقية والعبرية " كما ذهب إلى هذا الرأي " كريستوفر رولستون " (Christopher Rollston) الخبير بالنقوش السامية القديمة، ورئيس تحرير مجلة Maarav المتخصصة باللغات والكتابات السامية، الذي رأى أنه " ليس من الصعب فضح التزوير في النقش لأنه ليس متقن الصنع، فهو يختلف كلياً عن جميع النقوش المؤكدة التي تعود إلى لغة عصر الحديد العبرية (من حيث الدمج بين أشكال من أزمنة ولغات مختلفة) حتى إنه لا يمكن أن يؤخذ بجدية على أنه قديم " [٥٦].

فبخلاف هذا النص المنقوش المزعوم، لم يتمكن الأثريون من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود ٣٠٠ موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية - السليمانية، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل السابع

(١) د. زياد منى، **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص (٣٦ - ٣٥).

(٢) كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢، ص (١٧٠ - ١٦٩).

(٣) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٩٩٨/٤/١٥، وبتاريخ ١٩٩٨/٦/٦.

(٤) توماس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح على سوادح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٩٤.

(٥) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٢.

(٦) فراس السواح، **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود**، ط٣، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٥.

(٧) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، كتاب سطور الرابع، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٥.

(٨) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧.

(٩) جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص ٦٥.

(١٠) **كارين أرمسترونج**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.

(١١) **توماس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.

(١٢) **توماس طمسن**، المصدر نفسه، ص ٩٦.

(١٣) بير روسي، **مدينة إيزيس - التاريخ الحقيقي للعرب**، ترجمة: فريد جحا، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٠، ص ٢٥.

(١٤) **بير روسي**، المصدر نفسه، ص (٢٦ - ٢٥).

(١٥) **توماس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٢.

(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، ألفها نخبة من الباحثين، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص (١١٥ - ١١٤).

(١٧) توماس طمسن وآخرون، **الجديد في تاريخ فلسطين**، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، ط ١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٣٩. (كيث وايتلام، إعادة اكتشاف فلسطين).

(١٨) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره،، ص ٢٧٤.

(١٩) كاثلين كينون، **الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة**، ترجمة: د. شوقي شعث وسليم زيد، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٠، ص (٥٧ - ٥٨).

(٢٠) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٩.

(٢١) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

(٢٢) مايزر، **فجر التاريخ**، ترجمة: على عزت الأنصاري، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٢،
ص (١٣٠ - ١٣١).
(٢٣) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص (٤٦-٤٧).
(٢٤) **جودت السعد**، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.
(٢٥) روجيه جارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسية الإسرائيلية**، ترجمة: قسم الترجمة بدار الغد العربي، ط١، دار الغد العربي، ١٩٩٦، ص (٥٩- ٦٠). نقلاً عن د. كينون، **الحفر في أريحا**، لندن، ١٩٥٧، ص (٢٥٦- ٢٥٧).
(٢٦) زئيف هرتسوغ، عالم آثار إسرائيلي يشكك في فكرة أرض الميعاد، BBC ARABIC NEWS. ١٩٩٩/١٢/٢٤.
(٢٧) ج. كونتو، **الحضارة الفينيقية**، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ب. ت، ص ٣٨.
(٢٨) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.
(٢٩) **روجيه جارودي**، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠. نقلاً عن الأب دي فو، **التاريخ القديم لإسرائيل**، ص ٥٦٥.
(٣٠) كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: د. سحر الهنيدي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٩٩، هامش ص ١٥٣.
(٣١) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره،، ص ٥٤.
(٣٢) **توماس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧ وما بعده.
(٣٣) فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٢.
(٣٤) د. أحمد داود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص (٩١ - ٩٢).
(٣٥) زئيف هرتسوغ، التوراة: لا إثباتات على الأرض، **هآرتس**، إسرائيل، ١٩٩٩/١١/١٨.
(٣٦) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٩٩٩/٤/١٥.
(٣٧) **توماس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص (٢٢-٢٣).
(٣٨) **توماس طمسن وآخرون**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩. (نيلز لمكة، يشوع والعنف الغربي).
(٣٩) الأب مايكل برير، **الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني أمريكا اللاتينية - جنوب أفريقية - فلسطين**، ترجمة: أحمد الجمل وزياد منى، ط٣، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤،
ص (٣١٣ - ٣١٢).

(٤٠) لورنس دفدسن، الآثاريات **الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب**، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، دراسات قدمس (٤)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠١، ص ١٢٥.

(٤١) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.

(٤٢) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

(٤٣) أحمد الدبش، إسرائيل أمة مفتعلة، **العصور الجديدة**، العدد ١٥، السنة الثانية، دار العصور الجديدة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٠.

(٤٤) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

(٤٥) **كيث وايتلام**، المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٤٦) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٥/٤/١٩٩٨.

(٤٧) **توماس طمسن، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**، ترجمة: عدنان حسن، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣، ص (٢٦٩ - ٢٦٨).

(٤٨) **توماس طمسن**، المصدر نفسه، ص (٣٢٤ - ٣٢٣).

(٤٩) **توماس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، القدس أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة: د. فراس السواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص (١١٣ - ١١٦). [مارغريت شتاينر، حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد].

(٥٠) **توماس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢. (إنغريد هيلم، قتال الأخوة: النزعة الإثنية لدي اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية).

(٥١) د. محمد مصطفي الأعظمي، علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور توماس طمسن نموذجاً، **الجزيرة**، العدد ١٠٦٠٢ مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، رجب ١٤٢٢.

(٥٢) **توماس طمسن وآخرون**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢. (كيث وايتلام، إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين).

(٥٣) **توماس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص (٧٧ - ٨٠). [نيلز لمكه، " بيت داود " في نقش " تل دان "].

(٥٤) **توماس طمسن**، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص (٣١٩ - ٣٢٢).

(٥٥) **توماس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص (٩٦ـ ٩٨) [نيلز لمكه، " بيت داود " في نقش " تل دان "].

(٥٦) د. عصام سخيني، نقش الملك التوراتي يهوآش نموذج لتزوير التاريخ الفلسطيني، **المركز الفلسطيني للإعلام**، موقع على الإنترنت.